الأغنية الزرقاء الخشنة

قصة بقلم زكريا تامر

نهر المخلوقات البشرية تسكع طويلا في الشوارع العريضة المغمورة بشمس نفرة ... حيث المباني تزهو بسكانها المصنوعين من قطن ابيض ناعم، ضغط ضغطا جيدا في قالب جيد، وتعرج النهر عبر الازقة الضيقة ، وبين المنازل الطينية المكتظة بالوجوه الصفراء والايدي الخشنة .. وهناك امتزجت مياهه بالدم والدموع وبصديد جراح ابدية . وعثر النهر في ختام رحلته على نقاط مبعثرة بمهارة .. مختبئة في قاع المدينة .. فصب فيها حثالته الباقية .. واحدى هذه النقاط مقهى صغير قابع قبالة المعمل الذي طردت منه قبل اشهر لارتكابي خطأ أتلف آلة من آلاته .. ورواد هذا المقهى عمال يشتغلون في المصانع القريبة وفلاحون وبائعون متجولون وسائقو سيارات وتراكتورات وعربات وحمالون واناس بلا عمل ـ مثلي ـ يجلسون جميعا باسترخاء ، يحتسون الشاي على مهل ، ويثرثرون دون ان يكون بينهم اية معرفة سابقة .

وصاحب المقهى ابو احمد رجل هرم ، طويل القامة ، عريض الكتفين شاربه كث يضفي مسحة من القسوة على وجهه المليء بالتجاعيد وهو جد فخور بمقهاه ، وقد قال لي منذ ايام :

ـ ابي كان فقيرا .. لم يترك لي شيئا عندما مات .. وهذا المقهى ملكته بعد تعب وجوع وغربة .. لكي يكون الانسان سعيدا .. يجب ان يكون له شيء ما .. ملكه ويخصه وحده .. اني اكره جدي فلو زوج امي من رجل غني لما ذقت طعم الشقاء الذي لاينسى .

وسألني ابو احمد : انكره جدك ؟

وتساءلت بينما انا متجه نحو مقهى ابي احمد : بماذا اجبته على سؤاله .. هل شتمت جدي .. قد اكون شتمت جدي .. وشتمت بضراوة عالما لاأملك فيه شيئا .

وصاح ابو احمد مرحبا بي حينما دخلت مقهاه بخطى متئدة ، وقال لي متسائلا بينما هو يضع امامي كوبا كبيرا من الشاي ذي اللون الخمري القاتم : كيف حالك ؟

قلت : مازلت بلا عمل ..لم اجع بعد .

قال : اشكر الله .

قلت : اين الله .. دلني على منزله لكي اذهب اليه واشكره .

فضحك بمرح ثم قال : مت بسرعة اذا كنت تريد مقابلته .

قلت : لن انسى نصيحتك .

فلم يجبني بكلمة انما ادار رأسه نحو رجل يجلس بقربنا ..اعتدت على رؤيته كلما جلست في المقهى ، وقد علمت انه يعمل في بيع الملابس العتيقة . وساله :

ـ ابو علي .. متى ستتزوج ؟

فأجاب الرجل متسائلا بصوت ساخر :

ـ لماذا أتزوج ؟

وأشار الى سيجارته المشتعلة السجينة بين اصبعيه الاصفرين .. وقال : هذه زوجتي .

فقال ابو احمد : لافائدة منك .. انت حشاش اصلي .

وتعالى في تلك اللحظة صوت صارخ : ابو احمد .. هات شاي . وابتعد عني ابو احمد ليلبي النداء ،وقلت لنفسي : لو سألني ابو احمد متى ستتزوج ؟.. لفرقت في الاسى .. انا اريد ان اتزوج ولكني بلا عمل ... اريد امرأة تنام في الليل لصقي .. سيسكرني صوت انفاسها..سألمس لحمها الناعم بخشوع وانا ارتجف كأن حد مدية يضغط على حنجرتي .. سيفرق وجهي في ربيع شعرها الاسود .. سأقول لها بصوت خافت مرتعش : « انت جميلة .. لو كنت غنيا لاشتريت لك كل جواهر العالم .. » .. وعندما تنزلق شفتها بين شفتي سينتشر في دمي خوف مبهم ، وتنمو في اعماقي الرغبة بان اقول بذل : آه ياربي .. انا احب عناقيد العنب الحمراء النائمة في الكروم القصية .

وسأتحدث بحرارة عن جوع حارتنا القديمة .. الجوع كان طفلا شريرا يداه الشرستان عذبتا بلؤم فتاة شاحبة الوجه .. اسمها اميمة .. كانت تسكن مع اهلها الفقراء في حارتنا .. وعلمت يوما من تهامس امي مع الجارات بان اميمة اغمي عليها بينما كانت تمشي في الطريق بسبب جوعها الشديد .. كنت حينذاك صغير السن فبكيت لاجلها خلسة في الليل .. احببت اميمة رغم انها كانت تكبرني باعوام عديدة .. أحببتها أحببتها .. حبيبتي اميمة كانت حزينة وجميلة كموسى جسدها قمر ابيض خجول تخنق ضحكته الغرف المقفلة برجال ولدوا في ابنية من ذهب .

اميمة كانت تزور امي احيانا .. كانت تبكي احيانا .. فاتمنى لو احطم جبهتي ، وامحو بدمها الدموع من الارض .

كنت احلم بان اغدو ملكا .. فالفقر اميمة من الجوع والفقر .. وانا الان مازلت اتمنى بان اصبح ملكا .. في مدينة .. ناسها من حجر .. انا رجل فقير بلا عمل .. لا اضحك .. لا ابكي .. احب الخمر والغناء والازهة الخاوية .. واحب الشعر والخبز الابيض والنهود العميمة والظهر .. عيناي نعسان .. ذئبان مريضان .. وعينا اميمة كانتا نجمتين خبزهما قلبي .. وقلبي قد يكون بلبلا مذبوح العنق .. وقد يكون شحاذا تبكيه عتمة الليل .. في الليل هربت اميمة من حارتنا ، وزعم البعض انها قد امست رديئة السلوك .. لحم حبيبتي الابيض في الليل يؤكل على مناضد من حديد بارد .. ليتني قطيع من المدى المتوحشة المنفرسة في قلب مدينة لاتعطي اولادها سوى الجوع والتشرد والكآبة .. انا عدو المدينة المجهول .. اذرع طرقاتها كضبع جائع بينما ترقد في جيبي سكين عتيقة ، نصلها منطفىء التالق اشتريتها في يوم من الايام ، ومنذ اللحظة الاولى التي التفت فيها اصابعي حول مقبضها ايقنت بانه كان لتلك السكين تاريخ رهيب ، ولا ريب انها قد تعودت على القتل .. ولم يشعر نعاس مدينتي بالخطر الذي يهددهم فقد كان من الممكن ان تنقض السكين في اية لحظة غضب على كتل اللحم المتحركة عبر خواء المدينة .. وتستحم في الدم الاحمر .. الدم الاحمر .. ماأجمله !

وتهز كتفي يد تنتشلني من افكاري ، واسمع صوت ابي احمد :

ـ بماذا تفكر ؟

فقلت على الفور : انا افكر بمشكلة صعبة .. لو توجت ملكا على هذه المدينة .. فماذا سأفعل ؟

قال ابو احمد وقد استولى عليه حماس طفل :

ـ هذا تفكير لذيذ .. قل لي ماذا ستفعل ؟

ملف الغنية الضائعة

١ ـ ظلام

عيناك ظلام
عيناي ظلام
عبث ان نصنع ضحكتنا
ونحاول نرسم بسمتنا
فوق الشفتين
ما جدوى ـ ما جدوى البسمه ؟
والقلب تغلفه الظلمه
وهبي لفقنا وحذقنا
فطلينا الحسرة بالفرحه
لا بد ستفجأنا الايام
اذ تجلو زيف حكايانا
صدئين سيظهر قلبانا
عيناك ظلام

٢ ـ لحظة وداع

تدرين ـ فلسنا كالعشاق
يبكـــون اذا ما آن فراق
تدرين وأدري قصتنا
جمعتنا الصدفة ذات مساء
الوحشة تأكل كبدينا
والخيبة تكسو وجهينا
ثرثرنا الليل ـ تواعدنا
وكذا عـدنا فتلاقينـا
والآن سئمت حكاياتي
كل منا سئم الاخر
فلنبحث عن لهو آخر
لن نسفح أدمعنا لفراق
ما كنا يومـا كالعشاق

٣ ـ وحيد

الليل أغان تنتحب
أشواق تهدأ ـ تضطرب
وفم مفغـور يذعرني
الان ـ الان ستنهشني
أسنان العملاق الاسود
تنين يمتص دمائي
وانادي ، ينبحُ ندائي
لو انت تمهلت الليله
لو صدرك يحضنني الليله
لو ما نطقت شفتاك « وداع »
كنا لفقنا وكذبنا
وزعمت بعينيك الاشعاع
كنا نقتات ببعض حنان
ونحاول نبني عش امان
عودي فالليل يمزقني
يسحقني ، ينهش من لحمي
تنين يطويني بذراع
لكن أسفا
كل منا قد قال « وداع »

دمشق **تيسير السبول**

قلت : سأعطيك مبلغا من المال يكفي لشراء مقهى فخم .. وسآذن لك بتسميته بمقهى الملك .

قال أبو احمد : انت سخي جدا .

قلت : سأتزوج من امرأة شاهدتها منذ مدة فـي الشارع .. امرأة حقيقية .. وجه كقمر يحتضنه شعر أسود متهدل بفوضى .. عينان خضراوان .. نهدان مكتنزان يرتجفان اثر كل حركة صغيرة .. لقد سرت وراءها مسافة طويلة متمتعا بالحملقة في اهتزاز ردفيها .. يا لها من امرأة .. هي وحدها عالم كبير سعيد .. سآمر بالبحث عنها وسأتزوجها ..

قال ابو احمد مبتسما : قد تكون متزوجة .

ـ سأقول لزوجها بصرامة : العدالة فوق الاشخاص .. انت تمتعت بمباهج تلك المرأة طوال سنين .. والان حان دوري انا المعذب لكي اعرف طعم اللذة والسعادة .

قال ابو احمد : وماذا سيعمل الملك بعد ان وجد ملكة ؟

ـ سأهدم المعامل ، وسأجمع الالات في مكان واحد .. ثم اقول بصوت كله مهابة وجلال : انت ايتها الالات مخلوقات مجرمة جئت من بلاد غريبة .. حاملة لنا الشقاء .. اني آمر بتحطيمك باسم الانسان الذي يريد ان يحيا نقيا وديعا طيبا .. سأصيح في وجوه الناس المجتمعين حولي : هيا يا بلهاء .. ارجعوا الى الارض .. انها الام الوحيدة التي تعطيكم خبزا وفرحـــا دون ان تلوث قلوبكم بالكراهية .. البشر تعساء .. سأحول المدينة الى قرية كبـيرة محاطة من كل جانب بحقول خضراء ممتدة الى لا نهاية .. وسيكون لهذه القرية ساحة فسيحة جدا .. سيجتمع فيها كل مسـاء جميع السكان .. الاف الرجال والنساء سيشتركون في اغنيـة تتحدث عن الارض والانسان والحب .. ستتعانق في تلك الاغنيـة كل الاصوات .. سيشعر اصحابها اثناء الغناء بانهم اخوة وبـأن الحياة مليئة بالمسرات المختبئة ، وشيئا فشيئا سيتحولون الى اطفال كبار .. يعيشون بسعادة وسلام .. أليس هذا جميلا يا ابا احمد ؟

وقبل ان يجيب ابو احمد بادر الرجل الذي يعمل في بيـع الملابس العتيقة الى القول :

ـ اذا كنت تريد ان يكونوا سعداء .. فوزع عليهم مـن سجائري ..

قال أبو احمد : اجبرهم على شرب قنينة عرق في كل ليلة .

واردف حينما شاهدني انهض متهيئا للذهاب :

ـ الى اين ؟

فقلت وانا اعطيه ثمن الشاي : سأتمشى قليـلا .. سئمت الجلوس .

وتوقفت عند باب المقهى مترددا ، وسمعت ابو احمد يصيح :

ـ هل نسيت شيئا ؟

فاستدرت ورجعت نحوه ، وأخرجت السكين التي كانت تقبـع في جيبي ، وقلت لابي احمد :

ـ أتشتري ؟.. سأشرب بثمنها شايا اذا وافقت ..

فتناولها من يدي ، وراح يتاملها برهة ثم قال بلهجة مرحة :

ـ اتفقنا .. انها سكين تصلح لطبخ ام احمد .

وخرجت من المقهى وانا أحس بغبطة وبنشوة لا حد لها .. سرت بضع خطى ، ثم توقفت وحدقت .. ذئاب صغيرة رماديـة سجينة في قفص قضبانه فولاذية غليظة .. سمعتها تعوي بغضب في اعماقي لحظة التقت عيناي ببناء المعمل الذي طردت منه قبـل اشهر .. ولكني ابتسمت وقلت لنفسي : هذا المعمل سيهـدم باسم الانسان في يوم من الايام .

وتابعت مسيري فوق امتداد طويل من الاسفلت الباهت بينما كان يصرخ في داخلي لحن اغنية قديمة كانت ترددها امي حينما كنت صغير السن .

دمشق ـ **زكريا تامر**

من جمعية الادباء العرب